﴿سورة النصر﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ لم استعملت الآية إذا ولم تستعمل إن ؟

والجواب: إن هذا أسلوب شرط فيه أداة الشرط وهى (إذا)، وفعل الشرط وهو جاء نصر الله والفتح، أما جواب الشرط فهو فسبح بحمد ربك واستغفره، والسؤال هنا لم اختار القرآن استعمال (إذا) ولم يستعمل أداة الشرط (إن)، والجواب: أن بين "إذا" و"إن" فارق فى اللغة حيث تدل "إذا" على تحقق وقوع فعل الشرط بينما "إن" لا تدل على التحقق بل تدل على التشكك في وقوعه، وهذا هو الفرق بين "إن" الشرطية و"إذا" الشرطية .

فعلى سبيل المثال إذا قال إنسان لآخر: إذا طلعت الشمس جئتك... هذا يعني أن المجيء مؤكد الوقوع، لأن طلوع الشمس لا يتخلف، أما فعل الشرط بعد "إن" فغير مؤكد الوقوع فتقول: (إن جاء زيد أكرمته) لأن مجيئه غير مؤكد فقد يحدث له ما يمنعه، فالفرق بين "إذا" و "إنْ" أنَّ "إذا" تستخدم للشرط وتعني أن فعل الشرط الذي يأتي بعدها مؤكد الوقوع، بينما يكون فعل الشرط بعد "إن" غير مؤكد الوقوع، كقول الله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾** [١]، لأن الفاسق قد يأتي وقد لا يأتي، وكذا فى قوله ﷻ: **﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾** [٢] إشارة إلى أن الأصل فى الزواج هو الديمومة وعدم الاستبدال لكن قد يحدث – وهذا قليل – فاستعملت الآية أسلوب الشرط (إن)، بينما قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾**[٣] لأنه من المؤكد عدم استغناء الصحابة ﷺ عن التناجى

---

(١) سورة الحجرات / من الآية ٦ .
(٢) سورة النساء / من الآية ٢٠ .
(٣) سورة المجادلة / من الآية ٩.

والتخاطب مع الرسول ﷺ فعبرت الآية بأسلوب الشرط (إذا) وفى هذا الموضع قال الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** (١)﴾ لأن النصر من الله مؤكد الوقوع، وقد جاء النصر فعلاً وتحقق ورآه الرسول ﷺ فى حياته وأقرَّ الله به عينه قبل مماته، (ولتحققه عبَّر عنه بـــ "إذا" إعلاماً بأنه لا يخلف الوعد ولا ينقص ما قدره وإن توهمت العقول أنه فات وقته) [١] .

المسألة الثانية: ما الفرق بين النصر والفتح ؟

ما عن الفرق بين النصر والفتح ودلالتهما، فإن النصر والفتح ليسا مصطلحين مترادفين، بل هما مختلفان.

فالنصر: هو الظفر وهزيمة العدو فى المعركة، والفتح هو فتح البلاد ودخولها، ومن المنطقي أن يكون فتح البلاد بعد النصر على أهلها ولذا قَّدم النصر على الفتح، قال الزمخشرى : (النصر الإغاثة والإظهار على العدوّ، ومنه: نصر الله الأرض أى غاثها، والفتح: فتح البلاد والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة)[٢] وقيل: (النصر كمال الدين، والفتح الإقبال الدنيوي له ولأمته، وقيل: النصر هو الظفر بالمنى في الدنيا، والفتح في الآخرة) [٣]، والأرجح وفق السياق هو الرأى الأول، قال الشوكانى – رحمه الله – (الأمر أوضح من هذا وأظهر فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم) [٤]، ولا يخفى على أحد فائدة إضافة النصر إلى الله ﷻ: ﴿**نَصْرُ اللَّهِ**﴾ وما تحمله من دلالة تعظيم هذا النصر ورفعته على ما عداه من انتصارات فهو نصر إلهى

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، ٨٢٩/٨، إبراهيم بن عمر البقاعى، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هــ، ٢٠٠٢م.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، ٨١٥/٤، محمود بن عمر الزمخشرى دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان .

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٨٥/٦، الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٦هــ، ١٩٩٦م.

(٤) فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، ٧٢٤/٥، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤٠٣هــ، ١٩٨٣م .

ربانى يخرج عن حدود البشر وإمكاناتهم ، وثمة دلالة أخرى فى نسبة النصر إلى الله ﷻ، ألا وهى أنه نصر الله ﷻ (يجيء به الله: في الوقت الذي يقدره، في الصورة التي يريدها، للغاية التي يرسمها، وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد، وليس لأشخاصهم فيه كسب، وليس لذواتهم منه نصيب، وليس لنفوسهم منه حظ إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم وأن يقيمهم عليه حراساً ، ويجعلهم عليه أمناء. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجاً .

وبناء على هذا الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسولﷺ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم، إن شأنه ومن معه هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة الانتصار) [١].

المسألة الثالثة :﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾ لم أُمِرِ النبىُ ﷺ بالاستغفار وهل يتنافى ذلك الأمر مع عصمته ﷺ ؟

لا خلاف فى عصمة الرسول ﷺ وحفظ الله ﷻ له من الوقوع فى المعاصى والآثام، وهذا ما يُحدث – عند البعض – إشكالاً مع أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ بالاستغفار، ولذا قالأهل العلم فى هذه المسألة أقوالاً لبيان المراد من أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ بالاستغفار، منها:

- أن هذا الأمر من الله ﷻ هو فى الحقيقة لأمة النبى ﷺ وإن كان موجهاً لشخص النبى ﷺ فهو من باب تعليم الأمة، قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[٢]: (هذا تهييج للأمة على الاستغفار)[٣]، فإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ بالاستغفار وقد

(١) فى ظلال القرآن ، ١٢١/٨ ، سيد قطب ، مطبعة الحلبى ، القاهرة ، الطبعة الثانية .
(٢) سورة غافر / من الآية ٥٥ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٧ / ١٥١ .

عصمه، فما بال المذنبين المقصرين أمثالنا، فنحن أولى بملازمة الاستغفار وتجديد التوبة .

- وقيل إن النبى ﷺ كان يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله ﷻ به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوباً تحتاج إلى استغفار، قال الجزائرى: (أي اطلب منه المغفرة لما فرط منكمما هو ذنب في حقك لقربك وكمال علمك، وأما غيرك فليس هو بالذنب الذي يُستغفر منه ويُتاب إلى الله تعالى منه) [١] وهذا من عظيم مكانته وشدة خشيته ﷺ ولعلى أستأنس هنا فى هذا المقام بقول ابن عاشور: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) [٢].
- كما أن النبى ﷺ إذا ترك الأولى فى قضية من القضايا، كمسألة أسرى بدر، فقد يُعد هذا فى حقه ذنباً يُؤمر بالاستغفار من أجله وذلك لعظيم مكانته وعلو شأنه.
- وقيل إن الأمر بالاستغفار علته رفع درجاته ﷺ.
- وقيل إن الاستغفار عبادة محضة لا يُشترط لفعلها وقوع الذنب، فهو تعبد يجب إتيناه، لا للمغفرة، بل من باب التعبد المحض.
- وقيل الأمر بالاستغفار بمعنى المداومة عليه .
- وقيل فى معنى ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، أى: (استغفر لأمتك) [٣].

وأياً ما كان المعنى المراد فإن الدرس المستفاد هو مداومة العبد على التسبيح والاستغفار، والتوبة والندم، وله فى المعصوم ﷺ الأسوة والقدوة .

وفى السورة لطيفة يحسن التوقف عندها :

لِمَ فهم بعض الصحابة من هذه السورة المباركة أنها نعى للنبى ﷺ وإيذان باقتراب أجله ؟ ذلك أن السورة الكريمة قد حوت إشارة إلى اقتراب

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ٦٢٥/٥، جابر بن موسى الجزائرى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٥، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

(٢) التحرير والتنوير / ٢٦ / ١٤٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠ / ٢٣٣ .

أجله ﷺ وتهيؤه للقاء ربه ﷻ وهذا ما فهمه بعض ذوى الأفهام النافذة من الصحابة الكرام – رضى الله عنهم – كأبى بكر وعمر والعباس وابنه وابن مسعود – رضى الله عنهم –، قال القمى: (وقد اتفق أكثر الصحابة على أنها دلت على نعي الرسول ﷺ وفهمه بعض الصحابة منها، وخطب رسول الله ﷺ بعد نزولها فقال: إن عبداً خيرّه الله بين الدنيا وبين لقائه في الآخرة فاختار لقاء الله) (١).

كما توافرت الآحاديث على ذلك ومن ذلك ما أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس ﷺ قال: (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: ومارأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾** حتى ختم السورة، فقال بعضهم: "أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا"، وقال بعضهم: "لا ندري"، أو لميقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس، أكذلك قولك ؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾** فتح مكة، فذاك علامة أجلك: **﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾**، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم) (٢).

وقد دلت هذه السورة على علامة اقتراب أجله ﷺ وهى نصر الله ﷻ لنبيه وفتح مكة ودخول العباد فى الدين أفواجاً، فإذا تحقق ذلك فقد أكمل الرسول ﷺ مهمته وأدى ما عليه فأمره الله ﷻ بمداومة التسبيح والاستغفار استعداداً للقاء الرب ﷻ، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: (المراد من هذه السورة أنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد ودخل الناس في دينك الذي

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/ ٥٨٥ .

(٢) الجامع الصحيح، ٤ / ١٩٠١، محمد بن إسماعيل البخارى، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م .

دعوتهم إليه أفواجاً فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار، فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا)[1] ولذا تسمى هذه السورة – كما فى كتب المفسرين – بسورة التوديع .

كما أن فى السورة ملمحاً آخر ألا وهو أن الأمر للنبى ﷺ بملازمة التسبيح والاستغفار فيه انشغال له ﷺ عن أعباء إبلاغ الرسالة وتعليم الناس (ولا يخفى أن الاشتغال بهذه الأعمال يمنع من الاشتغال بأعباء التبليغ وبأداء ما كان يواظب عليه من رعاية مصالحالأمة ، فكان هذا كالتنبيه على أن أمر الرسالة قد تم وكمل بسبب الموت)[2].

أما الأمر الأخير فهو أن إشارة السورة إلى النصر المبين والفتح الكبير هى دلالة على تمام الدين وكمال الرسالة وتحقيق الغاية التى من أجلها أُرسل الرسول ﷺ، وقد جرت سنة الله ﷻ فى كونه أنه ليس بعد التمام إلا النقصان، قال أبو البقاء الراندى فى قصيدته الرائعة :

لِكُلِّ شَيءٍ إذا ما تَمّ نُقصـــــانُ * فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إنســـانُ**
هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ * مَن سَرّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمان**
وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ * وَلايدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ**

وفى ذلك درس للمرء ألا يغتر بما آتاه الله ﷻ وليعلم أن الدنيا دار زوال والآخرة دار بقاء .

---

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ص ١٩٨، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م .
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/ ٥٨٧.